ابن واصل
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب
نشره
جمال الدين الشيال
(مطبوعات إحياء التراث القديم ، وزارة المعارف ، القاهرة ١٩٥٣م)

لهذا الكتاب الكبير قصة طويلة طيبة ، حميدة المطاف والخاتمة على غير المألوف فى نشر الكتب الكبرى ، لأن النشر ليس إخراجاً سريعاً لمادة مخطوطة فى ثوب مطبوع ، بل عملية تؤدة صابرة مثابرة ، ذات أدوار لا يطيقها إلا العارف بأهمية المتون السليمة فى التأليف الجدير بالقارئ العربى الجديد . وهذه الأدوار هى إحصاء النسخ المعروفة من المخطوطة المزموعة للنشر ، ثم قراءة هذه النسخ مقابلة بعضها إلى بعض ، ثم اعتماد أحسنها أصلا للنشر ، وتهذيب هذه التى هى أحسن فى تقدير الناشر بتوضيح غامضها ، وتكميل ناقصها ، وتنوير مجهولها بالحواشى الضرورية . وهذا وذاك يتطلب من الناشر معرفة مفهرسة بمختلف المنابع والمراجع فى التاريخ والجغرافية واللغة ، والآثار والطبوغرافية كذلك . وتوفرت هذه المعرفة لناشر هذا الكتاب ، كما توفرت له مؤهلات النشر كلها بعد مران مشهود به فيما قدم هو للمكتبة العربية من مؤلفات المقريزى الصغرى ، وهو بقيامه على نشر مفرج الكروب لابن واصل جعل المعنيين بالتاريخ المصرى فى العصور الوسطى مدينين له بدين ضخم .

قرأتُ المخطوطة الباريسية من هذا الكتاب تلميذاً مبتدئاً يطلب المعرفة بباريس ، فعبرت عليه عبور الطالب الذى لم يجد فيه مادة بعمله الراهن وبحثه وقتذاك ، فلم أستمدّ منه جذاذات مكتوبة ، ما عدا جذاذة واحدة سجلت فيها اسم مؤلفه وعنوانه وعدد صفحاته وموضوعه ؛ وتوكلت على الصدفة أن أرى هذه المخطوطة مرة أخرى . لكنى عجبت لأجيال المستشرقين إهمالها هذا الكتاب

برغم وجود نسختين فى باريس من مخطوطاتها الأربع التى أحصاها الناشر لعمله فيما بعد ، وبرغم نسبة الكتاب إلى مؤرخ شهد أيام الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام ، وعمل فى الدولتين قاضياً ، وسفر للسلطان بيبرس سفارة إلى الإمبراطور مانفرد بن فردريك الثانى فى صقلية ، وعاش فى هذه الجزيرة مدة أنجز أثناءها كتاباً فى المنطق اسمه الأنبرورية . وعجبت كذلك أن مصرياً أو شامياً ممن عرف المكتبة الأهلية بباريس فى سالف السنين لم يلتفت إلى هاتين المخطوطتين ، أو إحداها على الأقل ، والناشر يشاركنى هذا العجب فى مقدمته (ص ٢٠) ؛ ولعل غلط التسمية فى المخطوطتين الباريسيتين هو السبب فى احتجاب هذا الكتاب عن عيون المنصرفين للنشر ، حتى أواسط القرن العشرين الميلادى .

ثم مضت بضع سنوات ، وأخذت أعمل فى نشر كتاب السلوك للمقريزى ، واحتجت إلى كثير مما لم يكن متوفراً بمصر وقتذاك من المراجع وأدوات البحث ومنها المخطوطتان الباريسيتان لمفرج الكروب ، فحصلت دار الكتب المصرية على صور شمسية منهما لأجل خاطرى . ثم عرفتُ بعد ذلك أن نسخة مخطوطة ثالثة فى كامبردج بإنجلترا ، فحصلت المكتبة العامة بجامعة القاهرة على صور منها كذلك ، وصار بمصر عددٌ كافٍ من النسخ لمن يتصدّى للنشر ، فدعوت وتمنيت أن تلقى دعوتى مجيباً ذا أهلية علمية كافية . ثم رأيت نسخة رابعة فى إسطنبول ، وهى التى حصلت عليها المكتبة العامة بجامعة الإسكندرية للدكتور جمال الدين الشيال ، بعد أن عقد النية على النهوض بهذا العمل ، وهى أقدم النسخ الأربع وأعظمها قيمة ، وأصلحها أن تكون أصلا للنشر ، لولا أنها قطعة من مخطوطة ابن واصل ، تنقصها محتويات هذا الجزء الأول المعروض فى هذه السطور ، فضلا عن معظم محتويات ما سوف يكون الجزء الثالث من هذا التأليف الحافل .

الواقع أنه ليس بين النسخ الأربع التى استأداها الناشر نسخة واحدة كاملة من مفرج الكروب ، ولكنها تكمل بعضها بعضاً . وتعيّن على الناشر بسبب ذلك أن يلجأ إلى عملية إضافية فى النشر ، وهى عملية التوفيق والوصل والتعشيق ، مع الحرص على الربط الفنى بين قطع المتن ، والدأب على الرجوع إلى المراجع المعاصرة إمعاناً فى الاطمئنان ؛ والناشر لهذا كله زعيم بثناء عاطر كثير . (انظر ص ١٣ — ١٧ من المقدمة) .

وبعد فهذا كتاب طويل زاخر ، وإنى أهنئ بطبع الجزء الأول منه صديقى الذى لزمنى أيامه الأولى تلميذاً بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ثم لزمنى أيامه الثانية زميلا بالتعليم الجامعى ، وسوف أغتبط لأيامه الثالثة حين ينتهى من عمله الصامت الجيّد فى سبيل إمداد المؤرخين المصريين — وغير المصريين — بجميع أجزاء مفرج الكروب ، على غرار هذا الجزء الأول ، من دقة التحرير ووضوح الحاشية ، فى غير حساب لوقت . وإذ أثار الناشر فى مقدمته إلى قيامى على مراجعة هذا الجزء الأول وما بعده قبل تقديمه للمطبعة ، فلا أرانى صالحاً لاستعراضه أو نقد طريقته فى روح موضوعية إلا بمقدار . على أنى أستطيع التعوّض عن هذا التقيّد بالتنويه إلى ما يحتوى عليه هذا الجزء الأول من حقائق لم تكن معروفة إلا فى المراجع المتأخرة التى استمدت من ابن واصل ، دون ذكر اسمه معظم الأحيان ، ومنهم المقريزى نفسه فى الجزء الخاص بالأيوبيين من كتاب السلوك . ثم إنى لست متحرّجاً أن أطرى الناشر على عمله الذى يظهر واضحا ناضجا كل النضوج فى هذا الجزء الأول ، كما أنى لست متحرّجاً أن أدلّه على بعض ملحوظاتى رغبة فى إخراج الجزء الثانى شبيهاً بأخيه الأول ، من حيث الإمعان فى التهذيب والترتيب والتحشية ، فضلا عن مجانى التجربة . وهذه الملحوظات هى أن تكون مقدمة الجزء الثانى أبجدية العدد ، حتى لا تختلط أرقام صفحاتها بأرقام صفحات المتن ، وأن تكون الحواشى أكثر قصداً واختصاراً مما هى فى بعض صفحات هذا الجزء الأول (انظر ص ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٧ ، ٢٢٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٥) . الواقع أن دستور النشر أضحى صارماً فى تطبيق مبدأ القصد والاختصار فى الحواشى ، بحيث لا تشغل الحواشى من الصفحة الواحدة إلا ثلثها على الأكثر ، ليظلّ الثلثان على الأقل للمتن ، وليظل المتن واضحاً للقارئ . على أن هذه الملحوظة بالذات هى مما أستطيع توجيهه إلى نفسى بشأن بضع صفحات معروفة لى من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزى ، وهى ملحوظة تعلمتها من تجارب العمل فى النشر .

ثم إن فى استطاعة الناشر دائماً أن يوفر من جهوده باجتناب الوقوف عند ألفاظ أضحت فى مصطلح التاريخ المصرى معروفة سهلة الوصول إليها فى حواشى

المرحوم محمد رمزى فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، وحواشى السلوك للمقريزى . وتكفى الإشارة إلى مواضع هذه الحواشى ، كما دأب الناشر دأباً حميداً فى هذا الجزء الأول ، إلا إذا جدت لديه معلومات إضافية يقتصر هو على إيرادها فى حواشيه ، وينفرد لذلك بفصل التجاءيا، والإضافة إلى المعرفة التاريخية .

(انظر ص ١٤ ، ٢١ ، ١٠٢ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٨) . وبهذه الطريقة يستطيع الناشر أن يسلط من ضوء معرفته على ما عساه يكون جديداً من الألفاظ الاصطلاحية ، مثل الدينوز ، وقلم دقيق ، وقلم جافى ، والجهات . (ص ٤٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ على التعاقب) .

وبالكتاب عدد من الأخطاء المطبعية التى لا سبيل إلى اجتنابها فى معظم المطبوعات المصرية ، مهما بذل الناشر من جهد فى الأصول والبروفات ، لأن الغلطات المطبعية لا تزال فى مصر من الهفوات المغتفرة المنتظرة . ومن هذه ما يلى فى صورته الغالطة ثم الصحيحة

ص	٣	كمصدر أساسى	مصدراً أساسياً
«	٤	سنوات طويلة	بضع سنوات
«	٦	التصفيل	التفصيل
«	١٣	ينقصه	ينقصها
«	١٤	السلاليم	السلالم
«	١٥	أربعة (وثمان)ين	أربعة [وثمانيـ]ن
«	١٧	مياقارقين	ميافارقين
«	١٨	بل وأثار	بل أثار
«	٢٢	يا غيسيان	ياغى سيان
«	٣٦	انظر ما فات	انظر ما تقدم

هذه ملحوظات قليلة ، وليس فيها ما يستطيع أن يكون مأخذاً على الناشر ، مع العلم بأن فى هذا الجزء الأول متناً وحاشية ما هو محمدة له ، ومدرسة لمن يريد دراسة تطبيقية بالمجان فى النشر . مثال ذلك تقرير الناشر (ص ٢٦ ، ٣٧ ،

٤٠ ، ٤٣ ، ٨٢) عدم استطاعته أن يجد تعريفاً لمكان من الأمكنة ، أو تحقيقاً لاسم من الأسماء ، أو شرحاً للفظ من الألفاظ ، دون أن يجد غضاضة فى ذلك ، لأن المراجع لا تسعف الناشر دائماً ، والناشر مشكور على هذا النوع من الحاشية ، إذ يبرهن بها أن المتن أهم لديه من الحاشية ، والمضىّ فى العمل الشامل خير من الوقوف عند الحذافير المستعصية . ثم إن الناشر حرص كل الحرص (ص ١٣ ، ١٩ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٦) على ذكر المساعدات الفنية التى تلقاها من مختلف الأشخاص ، وهو كذلك مشكور هنا على هذا النوع من الاعتراف بضرورة التعاون بين القائمين على النشر فى بلاد العربية .

أما مواضع الأهمية فى هذا الجزء الأول من ابن واصل ، وهى مواضع عمد الناشر إلى التنويه بها تنبيهاً للقارئ المستفيد ، فكثيرة معروفة للباحثين العارفين بمراجع التاريخ المصرى ، ولكنهم سوف يقرأونها هنا لأول مرة فى مرجع عاش صاحبه زمن الأيوبيين بعد العادل الأول ، وزمن المماليك حتى بيبرس الأول ، وتقلّب فى بيئتهم ، واستمدّ من هذه البيئة وهو يكتب كتابه . لذا يأتى ابن واصل فى مقام ابن الأثير وابن شداد ، وابن الجوزى وسبطه ، والقاضى الفاضل وابن العديم ، والحنبلى والصفدى ، مضافاً إليه أن ابن واصل انفرد عن السابقين واللاحقين من هؤلاء وأولئك بأن كتابه جاء فيما جاء تاريخاً كاملا للأيوبيين ، من أيوب أبى صلاح الدين إلى أيوب أبى تورانشاه آخر السلاطين الأيوبية فى مصر ، فضلا عما كتبه فى الزنكيين فى الشرق الأوسط ، وفى سلاطين المماليك وقيامهم بعد الأيوبيين فى مصر والشام (انظر ص ٥ — ٨ من المقدمة). ففى الصفحات الخاصة بالزنكيين مثلا تصوير لطيف لشخصية زنكى ، وكأن ابن واصل هنا أمسك بريشة مصوّر لا قلم كاتب مؤرخ (ص ١٠٠ — ١٠٦) . وفى الصفحات الخاصة بنور الدين بن زنكى أبدع ابن واصل التصوير مرة أخرى (ص ٢٦٣ — ٢٧٩) ، وهو فى الحالين ناقل مقلّد لابن الأثير ومعاصريه ، ولكنه مبدعٌ مبتكر على أية حال ، بالمفاضلة والموازنة بين ما توفر لديه من المراجع . وبهذا الجزء الأول من مفرج الكروب كذلك إشارات إلى أصول الأيوبيين وحركاتهم الأولى فى سبيل بناء دولة ، وأهمها عندى فعلٌ ماضٍ مبنى للمجهول

اختفى ابن واصل وراءه ، ليشير إلى قصة تسليم أيوب لأخيه شيركوه مدينة دمشق ، تنفيذاً لاتفاق سابق بين الأخين ، دون أن يعلم به أصحاب دمشق إلا بعد فوات الأوان . (ص ٣، ٩ — ١١ ، ١١٠ ، ١٣٧ ، ١٦٣ ، ١٦٨) . ومن هذه الإشارات الخاصة بأصول الأيوبيين كذلك إشارة إلى صفات المضاء والعزيمة فى صلاح الدين (ص١٧٥ ، ١٦٣) ، وإلى صفات السرعة والصرامة التى اتصف بها عمه شيركوه ، حين أقطع البلاد المصرية للعساكر التى قدمت معه ، وجعل صلاح الدين مباشراً للأمور كلها ، وذلك غداة تولية شيركوه الوزارة الفاطمية . (ص (١٦٥) . وكلّ هذه الإشارات تضيف إلى ما أورده مستشرق معروف بصدد أصول الأيوبيين ، وبصدد أسرار نجاحهم فى تكوين دولة . انظر (Minorsky. Studies in Caucasian History)

وفى هذا الجزء الأول من ابن واصل إشارات تنبيهية إلى تطوّر الإقطاع الإسلامى (ص ١٠١ ، ١٥٠ ، ٢٨٠) ، وإلى طريق الإغارات على مصر من ناحية فلسطين ، وهو طريق قلعة صدر والسويس . (ص ١٣٨) .

وإذ عنى الناشر عناية واضحة بتنبيه القارئ إلى هذه الإشارات ، وغيرها من مواضع الأهمية التاريخية والوثائقية (انظر ص ١٧) ، وهى مواضع سوف ينتفع بها الباحثون قبل أن ينتهى هو من نشر هذا الكتاب ، فلا أقل من تصفية شكره وتكريره — لا تكراره — على توفيقه الذى غدا برهاناً دامغاً دالاً على أن دستور النشر أضحى محترماً فى مصر ، بين أيدى بعض الأمناء المخلصين للأجيال القادمة ، فى مصر والشرق الأوسط .

محمد مصطفى زيادة